قصـــــــــة

مصـــريـة

نحو أدب جديد

الخريف

قصـــة مصرية موضوعة

— ١ —

فتحت النافذة بيد مرتعشة فدخل منها الهواء كرجل . فاغمضت احسان عينيها نصف اغماضة واستنشقت طويلا وترنحت وانطلق من صدرها المكتئب العريض شبه أنين . .

ثم انحنت على الحافة وطوت ذراعيها المليئتين ورفعت رأسها وحدقت فى الفضاء.

وكانت السماء صافية الزرقة . ترصعها النجوم المتألقه ، والشارع هادئاً والصمت عميقا ، والهواء يهز الآونة بعد الأخرى أشجار الحديقة البعيدة فيسمع لأغصانها حفيف مقلق رهيب

واستغرقت احسان فى تأملاتها وانقضت فترة طويلة . .

وبرز الزنجى من منعطف الطريق عارى القدمين مرتديا بدلته الصفراء الكامدة حاملا عصاه الطويلة يضرب فى الأرض كجندى مشرد معتوه

ولوح بعصاه بغتة واعملها فى المصباح فانطفأ وعم جزءاً كبيراً من الشارع ظلام فوجمت احسان وزفرت . ولكنها استأنست بالظلمة المحيطة بها واطمأنت وعادت تطلق لأفكارها العنان...

صوبت أنظارها إلى الشجرة الكثيفة المغبرة المتمايلة عن بعـــد ولاح لها عندئذ طيف عزيز . طيف جارها الجديد « أمين افندى » الرجل الشاحب الصموت الخمرى اللون ، الرجلى الملامح ، المتأنق المترفع المتحفظ ، ثم تقدم اليها على مهل ، واستوى فى بهرة خيالها واستقر هناك . فارتعشت وطربت لوجوده معها وسط

هذا الظـــلام وابتسمت له ولم تستطع حبس دموعها فانهمرت على خـــديها غزيرة متدارکة

وذكرت كيف التقت به على الدرج مرار عدة . وكيف كانت تتحرك وتتلفت إذ تراه ، والصوت الناعم الرخيم الذى كانت تنادى به خادمتها على مسمع منه ، وضحكاتها الطويلة المشجعة والجهد البالغ الذى طالما تكلفته لتودع نظراتها اليه كل ماتكنه طبيعتها من دلال واغراء

ولكنه لم يكن ليحفل بها بل كان يغض من بصره ويفسح لها الطريق وينحنى فى احترام قائلا بلهجة جافة مؤدبة :

— نهارك سعيد ياهانم

وكانت لاتلبث أن تهبط إلى أقصى الدرج حتى تتلفت متطلعة اليه وترمقه بنظرة مداعبة محرضة فتراه يشيعها بابتسامة ماكرة خفيفة ملؤها التهكم والاستخفاف فيتصاعد الدم إلى وجهها ويتزايد خفقان قلبها وتمضى فى سبيلها مسرعة لاتلوى على شىء

وبالرغم من ذلك فقد كانت تحبه ، وتكبر منه فى نفسها هـــذا الاعراض وتتشبث به ، وتؤمل فى اجتذابه يوما ونيل رضاه

على أن مثل هذا الحادث كان يقع لها مع معظم الرجال . فهى منذ سنتين أو تزيد أى منذ بلغت الخامسة والاربعين من عمرها . لم تذكر أن ضحكة من ضحكاتها استطاعت أن تخلب لب فتى . أو أن لفتة من لفتاتها صادت أى شاب ، أو أن دعوة من دعوات عينيها استجاب لها أى رجل . . .

كان الجميع يتبعونها نفس النظرة العابرة . ونفس الابتسامة الخفيفة الفظيعة بكل مافيها من معانى السخرية والازدراء

وعبثا تبذلت فى أحاديثها ، وتهتكت فى زيها ، وتملقت الشبان من أقاربها وأقارب صديقاتها ، بل عبثا حاولت العثور بينهم ولو على فتى شائع الوجه ، وضيع النفس ، مسلوب الكرامة . يعيرها اهتمامه ويفهم ماترمى اليه ، ويبادلها الحب كذبا ويخدعها وتسخو عليه بالمال الذى يريد . . .

كلا . لم يكن أحد منهم ليرثى لحالها ، أو يرضى بضياع جزء من وقته الثمين فى سبيلها ، أو يعتقد لحظة أنها كانت جميلة وصبية وفاتنة . وان نظرة واحدة من نظراتها كانت تسوق الرجال خلفها كالكلاب . . .

أين ذهب الماضى ؟ . . وهل كان له فى يوم من الأيام وجود ؟ . . .

لشد ما كان يهتاج اليأس أعصابها لما أن كانت تشعر وتدرك بسليقتها أن ماضيها المجيد لن يشفع لها ، وأنه مات واندثر وانها بدنوها من الشيخوخة انما تولد من جديد وتستيقظ بغتة على حياة غريبة شريرة لاعهد لها بها

وكان يروعها من هذه الحياة أنها نقيض الأخرى وأن الناس قد اجمعوا على أن العقل فيها واجب . والحكمة زينة ، والوقار جمال ، والاستسلام لقضاء الله نعمة ، والزهد خير فضائل الجسد والروح

حياة هى فى الحقيقة موت يجب أن ترضى به صاغرة ولو أنها ماتزال تتحرك وتتنفس وتعيش !

ولكن كيف تقاوم . بل كيف تستسلم وتخضع وهى المخلوقة الطلقة المرحة الوثابة التى لم يزق أبواها غيرها فارسلاها على سجيتها فنشأت محبوبة مدللة . آمرة ناهية . تتطلع الى الترف والغنى ، وتنزع الى الجمال والسلطان ، ولا تغفر لامرأة أنها أوفر منها مالا ، أو أبهى مظهراً . أو أعذب حديثاً ، أو أتم حسنا ، أو أوقع فتنة

هكذا عاشت وهكذا يجب أن تعيش . ومحال أن ترضى بالحياة الجديدة التى تلوح لها من خلال تلك الفضائل الخبيثة العابسة كقوة غاشمة لئيمة تريد أن تغدر بها وتدفعها الى التمهيد لفنائها بنفسها !

الفناء . . . نعم . . . ألم يبدأ شعورها العميق به منـــذ أيام . . . لقد دخلت صالونها فجأة فلمحت لاول مرة بعض صديقاتها يتهامسن ويتغامزن ، ويبتسمن نفس تلك الابتسامة الساخرة ، وسمعت احداهن تعرض بشيخوختها ثم تشيح بوجهها وتخفى اضطرابها فى ضحكة حادة نفذت الى صدر إحسان كطعنة سكين !

وهاهى . . . ها هى (خيرية هانم) صديقتها الوفية تصر على مناداتها حتى أمام الاغراب بـ « يا أم محمود » ولا تنفك تسألها عن ابنها وكم بلغ من العمر

ولماذا هو متبرم نفور لا يكاد يبدو أمام النساء أبداً ؟ . . .

بل ان هذه الكنية — أم محمود — قد شاعت على ألسنة صويحباتها جميعا ، وذكر ابنها والاستفسار عن صحته وتقدير سنه أصبحت أشياء عادية لا مفر لاحسان من سماعها انى ذهبت وحيثما اتجهت . . .

ولقد سمعتها بالامس . . بالامس القريب أيضا . . سمعتها فى جملة لاذعة صريحة . . وممن ؟ . . منه هو . . من جارها . . من أمين أفندى . . من الرجل الذى تعبده وتعلل النفس بامكان الفوز به ، وتحرص على الظهور امامه بمظهر الصبا وتخشى أن هى تهاونت فى ذلك أن يزداد أعراضه عنها فتفقده ! . .

تفقده ؟ . . كلا . . كلا . . هذا لن يكون ! .

جالت هذه الخواطر فى ذهن احسان كومضات برق خاطف

وانبعثت فجأة من زاوية قصـــية فى الحجرة غمغمة عقبها زفير فغطيط فتقلصت شفتا احسان واستدارت وانصتت قليلا ثم تحولت وهزت أكتافها وبصقت فى الشارع . . .

وهبت نسمات لطيفة جففت دمع عينيها فتنهدت تنهدة طويلة وتحسست بيدها علبة السجاير الموضوعة على المنضدة المحاذية للنافذة فتناولتها وأخذت منها سيجارة وأشعلتها وبدأت تشتف منها بنهم وترسل ذوائب دخانها المعقدة فى الفضاء

وامتنع الغطيط بغتة ، وتقلب جسم ضخم قلق فاهتزت أعمدة السرير وانطلق من جوف الحجرة صوت أبح هزيل يقول فى لهجة متوسلة خائفة :

— إحسان . . انت جنبى والا لأ ؟ . . . ليه . . . ليه فتحت الشباك ؟ والنبى تقفلى . . اقفلى أحسن آخد برد . .

فرمت احسان بسيجارتها ، وأغلقت النافذة فى عنف ، ومشت الى سريره متباطئة متثاقلة ، فاستلقت عليه وعقدت أصابعها خلف رأسها ومضت تنبش بعينيها الطلام

ومرت برهة طويلة

وعاد الغطيط يدوى اشبه بخوار ثور فهدأت دقات قلب إحسان وتحفزت

وأمالت قدميها بحذر واستندت الى ذراعها ثم انسلت من الفراش واستوت واقفة ترقب حركات زوجها وتزن وقع خطيطه لتستوثق من انه ان يفيق

وبعد لحظة سارت بخطى وئيدة وقلبها يخفق ويداها ترتعشان مادة ذراعيها تشق بهما الظلمة كما يشق السابح الماء. ولكن ردفها الثقيل العريض اصطدم بمصراع الباب فصر صريراً مزعجا فتمهلت وتنفست ثم استطردت السير على أطراف قدميها مندهشة من نفسها مبهوتة لا تعلم على وجه التحقيق ما الذى أقامها ثانية ولأى سبب تسعى وعلام كل هذا الاحتراس وأى شيء ألم بها الليلة ؟ ...

ولكنها مع ذلك خرجت من الحجرة واجتازت دهليزا قصيرا وبلغت احد الابواب ففتحته فى رفق ودخلت. ثم رفعت يدها وتلمست مكان الزر. فادارته فسطع النور فجأة وملأ أرجاء الغرفة. فاجفلت احسان وتراجعت خطوة ووقفت ...

وكان فى الغرفة ثلاثة أسرة. احدها صغير ممددة عليه فتاة، وآخر كبير يرقد فيه صبيان، وثالث ضيق طويل كحفات الجرحى أو أسرة المستشفيات يضم جثمان شاب رائع الحسن عالى الجبهة. اسود الشعر، دقيق الحاجبين، تلقى اهدابه الطويلة على وجنتيه المتوردتين ظلا متراقصا بديعا

وكانت الغرفة مكسوة حيطانها بالورق الاحمر عليه رسم زهرات كبيرة سوداء اوراقها ذهبية الاطراف لامعة

وكانت فى احدى الزوايا صينية مستديرة من الماس اصفر - نقشت عليها رسوم مصرية قديمة - تقوم على قاعدة خشبية قصيرة وتحمل اطباقا بعضها قذر حط عليه الذباب فيه فضلات طعام وفتات خبز وقشور فاكهة

فقطبت احسان حاجبيها وتقدمت توا نحو السرير الضيق الطويل وحدقت فى الشاب الراقد ثم انحنت تتفرس فيه ...

وراعها منه وضوح قسماته، وانتظام أنفاسه، وظل أهدابه، وابتسامة الحلم الحائرة على شفتيه والجمال الهادىء الواثق المنسكب عليه. فضمت شفتيها وتولتها رعدة ...

وعلى حين فجأة حانت منها التفاتة فأبصرت قدمى الشاب ممشوقتين ناصعتين لم

تجدا لهما فى السرير المستطيل متسعاً فتدلتا خارجه فهزت احسان رأسها وأنعمت النظر فى القدمين العاريتين وصرت اسنانها وانبعثت من فمها المجعد زفرة . . .

واستدارت كأنما تحركها قوة خفية ومشت بقدم ثابتة فاطفأت الأنوار ثم عادت الى فراشها واستلقت عليه وحاولت أن تنام . . .

وبرغم أنها أدركت الآن سر ذلك البـــاعث الذى حفزها لترك سريرها والذهاب الى حجرة أولادها متسللة كاللص الحذر ، وبرغم الراحة الغريبة التى أحست بها فقد ظلت حائرة مذهولة تقالب الارق عبثا ولم تستطع اغماض عينيها إلا بعد ان نفذت الى الغرفة أولى أشعات الشمس !

— ٢ —

استفاق الزوج نحو الساعة السابعة ونادى بصوته البائس الوجل :

— احسان . . .

فلم يجبه أحد . فمد عنقه المحتقن الغليظ فأبصر زوجه مستغرقة فى سباتها فتأوه وتململ وفرك عينيه المنتفختين فتلوثت أصابعه بالمادة الصديدية اللزجة فمد شفتيه اشمئزازاً ومسحها بكم جلابيته ثم انحنى وجعل يبحث تحت السرير عن جواربه وهو ينفخ نفخات الضجر وعدم الاصطبار

وتناول المنشفة وذهب يغسل وجهه ثم قفل راجعا على أطراف قدميه فتمشط وتطيب وبحركة آلية حطت يده المعروقة الغليظة على مقعـــد صغير وأخذت النظارة وثبتتها على أنفه

ومضى يرتدى فى بطء ملابسه مبتسما لنفسه فى المرآة ، متحسسا ذقنه الحليقة بيده ، راضيا عنها ، مفكراً فى مرءوسيه فى الديوان . وفى عظيم احترامهم له ، وفى لذة العبث بهم . بل فى لذة الرعب الذى سوف يبدو على وجوههم ويعقد ألسنتهم لما ان يدق الجرس ويستقدم واحدا منهم ويحاول التهويش عليه ناسباً اليه مالم يفعل أو مبالغا فى تقدير نتائج هفوة بسيطة بدرت منه . . .

وابتسم لنفسه فى المرآة ثانيا وأمال طربوشه وأحكم وضعه ثم حمل منشته البيضاء وخرج يتهادى الى فناء الدار .

وجاءته الخادم بأطباق الفول المدمس والبيض والمربة والقشدة فأكل بشهية

وشرب ثم تراخى فى مقعده لحظة وتجشأ ومسح يديه بالفوطة واستوى واقفا وقال بلهجة متزنة جليلة :

— على بركة الله .

وانصرف الى الديوان

* * *

استيقظت احسان نحو الساعة العاشرة مصدوعة الرأس . ملبدة الذهن ، منهوكة القوى . فأسرعت من فورها الى الحمام وأرسلت الدوش على بدنها الخامل تجلد بالماء البارد أعصابها ، وتستفز دماءها وتنضر بشرتها الرخوة الباهتة . ولم تكد تخرج وتتناول طعام الافطار حتى كانت قد استعادت نشاطها تماما فجلست الى منضدة التواليت وبدأت جهادها المقدس اليومى . . .

وكان أولادها فى الحجرة النائية يضجون ويمرحون ، وصيحاتهم المتعالية الحادة تختلط بقهقهتهم البريئة الرنانة وتخنق الصرخات المذعورة المؤنبة التى كانت ترسلها فى الآونة بعد الآخرى « دادا التزام » بلهجتها الزنجية المضحكة .

وغمست احسان أصابعها فى حق صغير — وكان عليها ان تقوم بهذا الجزء من مهمتها ليلة أمس ولكنها أهملت . . . — وأمرت الدهان الأبيض الناعم على جلد خديها الخشن وتوخت مواضع التجاعيد فجعلت تدلكها وتسويها وترققها ثم عمدت الى شعرها الاشقر بفعل الأوكسيجينيه فضمخته بالعطر وصففته وكسته بشبكة خاصة ليتسق ويتساوى

وانطلقت بغتة صيحة مزعجة عقبها بكاء طويل فاهتاجت إحسان وتطلعت الى الباب قائلة :

— برضك بتضرب مصطفى يامحمد . . . والنبى حاجى أموتك . . .

فسمع صوت منتحب رقيق يقول :

— دا محمود اللى ضربنى . . .

فلمع بصر احسان وارتجفت وصرخت :

— محمود ؟ . . . الله . . . الله ياسى محمود كمان بتشطر على الواد الصغير . . . يا أبو طويله . . . ياوحش . . . دا مصطفى برقبتك ، . . سامع . . . برقبتكم كلكم

وساد الصمت !

واستأنفت احسان عملها وهى تزفر . . .

وأمعنت فى ذلك خديها حتى جف الدهان ثم كحلت عينيها وخططت حاجبيها وطلت وجنتيها وشفتيها بالحمرة وتفرست فى تقاطيع وجهها فى المرآة . وخامرها بغتة إحساس مبهم بالحيرة . . .

شعرت شعوراً غامضاً ، طالما عكر عليها اصباحها ، أنها كانت فيما مضى أمهر فى تطلية وجهها منها الآن . كانت تدرك بسليقتها مقدار ماتحتاج اليه وجناتها وعيونها من أصباغ ، و حسن وضعها والتوفيق بينها بحيث يبدو جمالها كأنما هو طبيعى أصيل . اما اليوم فقد اضطرب بصرها واختلطت عليها الظلال والالوان ولم تعد تدرى أيجب أن تخطط حاجبيها أيضاً أم ترقق منهما ، وتكسو خديها بطبقة حمراء اخرى أم أن فيما وضعته الكفاية . . .

واستولى عليها شعور عميق بالكمد والحسرة . وصعدت نفساً مستطيلا واطرقت هنيهة . وفيما هى تفكر تحركت أصابعها ببطء ومن تلقاء نفسها تصاعدت كأصابع عمياء تتلمس أدوات الزينة ثم امتدت إلى حق الحمرة الصغير وجعلت تراكم على خديها الطلاء . . .

ورنت أحسان بطرفها الى المرأة فبهتت . . بهتت . . إذ خيل اليها أن محياها أصبح غضا متالقاً جميلا كأنما قد دب فى أصابعها سحر ساحر استطاع أن يرد عنها كيد القضاء فافترت شفتاها عن ابتسامة هانئة ثم أمالت رأسها وصعرت خديها وذكرت وهى تهزأ من نفسها ومن خوفها أن ماوقع لها الآن هو عين ماوقع بالأمس وأنها ماتزال جميلة ، وأن ماأنتابها الساعة من حيرة وحسرة كان محض خيالات وأوهام . . .

وولد فيها هذا الاحساس على غير عادة شعوراً قويا بالكبرياء والسلطان ، وايمانا مطلقاً بجمالها ، ورغبة جنونية فى التمتع بهذا الجمال وحمايته من كل خطر وإذ ذاك لاح لها مرة اخرى طيف امين افندى مقترنا بطيفها وهو يخترق الحجرات ويتسلل تحت جنح الظلام كلص ، فانقدت عيناها واستسر جبينها ونهضت لفورها ومشت الى حجرة ابنها محمود . . .

— ٣ —

وكان محمود مستلقيا على كنبة معتمدا رأسه بيده يطالع فى كتاب وخصلات شعره الاسود الناعم الغزير تتدلى على جبهته العاليه الناصعة وتشوش على عينيه الرماديتين القاتمتين البديعتين فيردها الى الخلف بحركة عصبية رشيقة فيظفر معصمه العارى من كم بيجامته الفضفاض ابيض املس ساطعاً كشعاع من نور

وكان جسمه المتسق النحيف ممددا فى رخاوة حالمة كغصن لين حى . تلفه بيجامته الرقيقة البنية اللون ، ويبرز منها وينعكس عليها ههنا وهناك . بياض وجهه ويديه وقدميه كاضواء ساحرة موزعة على هذا البدن الغض

وكان منهمكا فى المطالعة واصابعه فى فمه يقرض اظافره باسنانه واهدابه الطويلة ترف اللحظة بعد الاخرى وعيناه البديعتان لاتفارقان صفحة الكتاب .

ودخلت أحسان الغرفة ولكنها وقفت وقد انعقد لسانها !

لم يشعر بها ولبثت هى فى مكانها شاخصة اليه تهز رأسها هزا متواصلا خفيفا وتعض على شفتها الغليظة السفلى . . .

وحانت منه التفاتة فابصرها فمرت على وجهه سحابة . ثم اعتدل فى جلسته ودفع الكتاب بمرفقه والقى حواليه نظرات محيرة شاردة ولم يتكلم . فتقدمت اليه على مهل وقالت بصوت حاولت جهدها خنق الرعدة التى تتمشى فيه :

ـ مين قال لك تضرب مصطفى ؟ . . .

فلم يرفع اليها طرفه وقال وهو يقرض اظافره :

ـ اعمل ايه . . بيلعب ويزعق ويضرب اخوه كمان . . . وأنا . . . عايز اقرأ . .

فتضامت أجفانها واسرعت انفاسها ودنت منه خطوة وقالت :

ـ وكمان بتقول انك ضربته ؟ . .

فلوح محمود بذراعيه وقال :

ـ دانا أول مالمسته راح معيط ... دا واد كداب ومدلع وقليل الادب . .

فصاحت وهى تتراجع :

ـ ايه ؟ . . . ايه ؟ . . . ايه ؟ . . .

فردد محمود وهو يشيح بوجهه .

— أيوه ... كداب ومدلع و . . .

فقاطعته احسان وضحكت نصف ضحكة ساخرة صفراء اهتز لها صدرها اهتزازاً شهويا مخجلا وقالت :

— النبي ؟ . . .

فوجم محمود وصمت . ولكنها اقتربت منه ووضعت يديها فى خاصرتيها وتمايلت ذات اليمين وذات اليسار ثم انفجر بغته غضبها الهائل الكظيم فانفتحت عيناها وحملقتا فى ابنها وقدح منهما الشرر وانطلقت تصرخ وقد برزت تقاطيع وجهها القاسى دميمة شريرة مخيفة تقبض عليها وتعصرها الغضون :

— هو انت أبوه لما تضربو ؟ ياخى كسر ايدك وكل ايد تتمد عليه . . . دا برقبتك ... وإلا عاملى هنا ريس ياسى محمود ... ياخى جاك نيله . . . جاك نيله . . . امال لو كنت نجحت فى الشهادة كنت عملت ايه ؟ .. كنت تدبح بسيفك ؟ . . مش كده ياخايب ؟.. اكلم . اكلم . . خرست ليه ؟ ..

وكانت ممسكة بذراعه تهزه هزاً عنيفا وهو مستسلم لها ، ورأسه المطرق الذليل يتطوح وفق حركتها ، وشعره اللامع يتناثر ، ووجهه الصبوح يقطر دما وعينه الخامدة المظلمة لاتجسر على رفع بصرها مخافة ان تلتقى بعيون منيرة ومصطفى « وداد التزام » والخادمه والطباخ الذين اقبلوا جميعا على صراخ احسان واصطفوا خلفها يشهدون الحادث وكلهم صامت مضطرب وجل !

وتلفتت احسان ورمقتهم بنظرة صارمة شامخة وقالت :

— فيه ايه ؟ . . . ياللا . . كل واحد لشغله . .

وانصرف الطباخ وتبعته الخادمة وهى تنظر الى محمود خلسة وتكاد تتعثر بالمقاعد وتسقط . . .

وأشارت دادا التزام إلى الاولاد بالخروج وتقدمتهم وهى تمص شفتيها مصا متواصلا اظهار لشفقتها وحزنها .

وتخلف مصطفى ودار على نفسه وصفر ثم اقترب من اخيه وأمر سبابته على انفه كعادته فى اغاظة البكم وقهقه مسروراً بفوزه ومضى يعدو خلف التزام

وظن محمود أن احسان ستلحق بهم ولكنها ظلت مكانها تجيل الطرف فى أنحاء الغرفة وتلوى اصابعها وتلهث كمن يبحث بفارع الصبر لاعصابه المهتاجة عن غذاء

وفجأة وقع بصرها على أشياء تلمع ملقاة فى زواية بعيدة فما أن رأتها حتى اومضت عيناها فاستدارت وأسرعت اليها ومدت ساقها البدينة ودفعت باعقاب السجاير إلى وسط الحجرة وانحنت تلتقطها ثم استوت وقد تدفق الدم الى وجهها وكرت على ولدها صائحة صياحا ابح مزعجا :

— كمان . . بترمى السجاير على الارض . . . الارض الممسوحة الصبح . . . الارض اللى انضف من وشك يا . . ياوسخ . . . ياقليل الترتيب . . .

وانطلقت تجوب أنحاء الغرفة كمتوهة وأبصارها المحددة المنقبة تأخذ الاشياء اخذا فى لمحات سريعة تستحث ثوران أعصابها ، وتشيع فى صوتها الغلظة والحشرجة ،وتصب فى عباراتها من هجر القول وفحشه ما كانت تحس له لذة تفوق لذة الغضب والتشفى

ورأت قميصا مدلى على حافة السرير بقرب الحائط فاختطفته ، وصديريا ملقى على الكنبة خلف محمود فاختطفته ايضا وجوارب مطروحة بجوار المكتب فالتقطتها وجاءت تلوح بها جميعا امام الشاب وهى ترعد وتردد :

— ياقليل الترتيب . . . هى دى أودة مكتب . . دى مزبلة . . هنا . . . الحاجات دى محلها هنا . . .

ومضت تعلق الصديرى والقميص على المشجب ، وتضع الجوارب فى درج الخزانة ، وتحكم التعليق والوضع ، وتطوف بالغرفة متنقلة من السرير الى المشجب فالخزانة فالمكتب ترتب الاشياء وتنظمها وهى تزفر ، وقد غص وجهها بالعرق وتساقطت نقطه المالحة فى عينيه فدمعتا ، وسال الكحل واختلط بالحمرة على خديها فبات منظرها مزريا غريبا يبعث فى النفس الخوف والضحك والاشمئزاز

وكان الاولاد قد عادوا فاجتمعوا خلف الباب ولم يجسرو على الدخول فاطلت رؤوسهم المترنحة من فوق بعضها البعض وفى مقدمتها رأس مصطفى المستدير الصغير

بشعره المموج الباهى الذى تسميه إحسان شعر اولاد الملوك . . . .

ولم يفارق بصر محمود الارض طوال فترة ثوران والدته .

وكان يلمح اقدامها فقط . . . اقدامها الكبيرة الثقيلة المنتفخة بعض الشيء ذات العروق الناتئة والجلد الرخو ، تقفز وتتراكض كاقدام صبية نشطة وتولد فى نفسه ضربا من الذهول يمازجه الاعجاب والرعب

ولم تكن هذه اول مرة احتمل فيها محمود من صرامة والدته وغطرستها وضيق ذهنها وولعها الجنونى بالنظافة والنظام ماضيق عليه فى البيت افق حياته واغراه بالعزلة والتأمل والصمت

فقد كان معتادا كل هذا وكان قد بدأ يشعر به ويدهش له ويتقيه منذ ثلاث أو اربع سنوات . .

اجل منذ ثلاث أو اربع سنوات وهذه المرأة — التى كانت مثال الحب والعطف والحنان ، والتى كانت تعبده عبادتها لمصطفى الان — لاتنفك تحوم حواليه وتبث العيون عليه ، وتطارده ، وتحاسبه على ابسط هفواته ، وتعد عليه مسراته وتتحين الفرص لتأنيبه ولومه كأن لاشاغل لها فى الحياة الاه ولا هم إلا ان تعكر عليه صفو عيشه . .

اجل كانت تسرف الى ولده فى الشكوى منه ، وتبالغ فى وصف اخطائه وتوغر صدر زوجها المطواع الضعيف حقدا عليه ، ولما ان رسب فى امتحان البكالوريا جعلت تشهر بغبائه وتندد بكسله وترشقه بالنكات اللاذعة وتعيره

كانت تأبى الخروج بصحبته الى المخازن او الملاهى كأن فى سيره او جلوسه بقربها اكبر عار لها . . .

بل لقد حرمت عليه أخيرا الظهور فى صالونها امام صديقاتها الهوانم ، وكان مجرد اجتيازه الردهة يوم « المقابلة » الماضى ووقوع بصر احدى الزائرات عليه كافيا لنعته من والدته بابشع النعوت ورميه بالوقاحة والسفالة وانحطاط الخلق . .

ولقد حدث منذ شهر ، ذات مساء وباب الصالون مغلق والنسوة فى الداخل يمزحن ويتضاحكن ان خطر لمحمود ان يدنو من الباب وينصت برهه الى مايقلن ، ولشد مادهش إذ سمع احسان تمتدحه . وتشدو بحبها له وتغرق فى أطناب سجاياه

وترسم منه صورة كاملة للاخلاق الفاضلة وتقسم اغلاظ الايمان انه لم يبلغ الثامنة عشر بل انه مايزال صغيرا ، وان جسمه اكبر من سنه ، وانه لم يناهز بعد ربيعه الخامس عشر . . .

حار الفتى فى تعليل هذا التناقض والكذب ولكن شعوره بالاضطهاد كان قد احاله سوداوى المزاج ، متبلد العقل . كثيف الذهن ، متجهما مستوحشا نفورا لايتكلف عناء التفكير الطويل فيما يحيط به ولا مشقة الاهتمام الجدى بدروسه بل ينطوى على نفسه ويلوذ بصمته ويحتمى فى عزلته ولايلتمس السعادة فى غير جلسة هادئة يقضيها مع ابن عمه كمال او رواية غرامية يطالعها او حديث موجز قلق يتبادله — فى غفلة عن والدته — مع الخادمة الفلاحة « ام سطوحى » التى حملته بين ذراعيها ، وارضعته من ثديها — ذات الضحكة الناضرة الحيية والصوت المرتعش الذليل ، والعيون الخفرة السود التى لا تكاد تتطلع اليه حتى يرتجف ويراها ترتد كليلة كانما هى قد حدقت فى الشمس ! . . .

تلك كانت حياته التى الفها ولم يعد يتبرم بما فيها من استبداد ونبذ ومهانة وازدراء ، وتلك كانت والدته التى لم يعد يدرى هل هى فى الحقيقة والدته وهل هو حقا ولدها أم انه — كما يصور له خياله المضطرب الساذج — شريد أولقيط أو ابن سفاح أو ابن مطلقة زانية عهد به والده الى هذه المرأة القاسية تربيه وتقتص منه للجرم الفاضح الذى استولده؟!

قد يكون هذا ؟ . . لم لا . . لقد طالما عصفت برأسه هذه الفكرة وبرحت به وأقضت مضجعه وشردته فى الطرقات حيران مهموما بائسا ، يرتاد بيوت الدعارة ليلا بمفرده ولا يستريح الا الى معاشرة بعض البغايا الطاعنات فى السن اللواتى يخيل اليه انهن هادئات رقيقات لطيفات على شىء من ذلك الحنان العميق العذب الذى عبثا حاول بمعسول الكلم ، وحلو النظرات ، والتفانى فى الطاعة والخضوع ، احياءه فى قلب احسان

وها هى نفس الفكرة تحتل خياله الآن وتنتشر فى رأسه وتنمو . . الآن لا سيما الآن . . اذ هو لم ير قط احسان بالصورة التى يراها عليها الآن . .

اجل كانت تضطهده ولكن تحت ستار المكر والخديعة — باصابات متباعدة ،

ووخزات خفية . وضروب من اللؤم ماهرة وافانين من الحيل تستنبطها لفورها وتحسن حبكها ولا تنفذها الى مشربة بالحيطة ، مفعمة بالتحقير وعدم الاحتفال

تلك كانت طريقتها فى التنـــكيل به واخضاعه وانزاله على حكمها فى كل ما تريد ولكنه لم يشهد منها أبدا هذا الشر الصريح المخبول ، وهذه القسوة الفظة المنكرة . ان فى صرخاتها لبغضا ظاهرا فظيعا لم يعهده فيها من قبل وان فى حركاتها ولفتاتها لارادة واضحة فى الحاق أشد صنوف الأذى به ، بل ان فى عينيها المحمومتين لبارقة عزم جديد مخيف . . . ترى ؟ ما الذى يجول بخاطرها وماذا تريد منه ؟ . . . كلا . . . ليست هى احسان كما أنها ليست والدته . لقد تنكر كل شىء فيها . انها لوحش . وحش هائل كريه فى صورة امرأة طالما ضمته الى صدرها وهو طفل واسمعته خفقان قلبها ، وطالما روى حواسه من عطرها الفياح ومن أريج بدنها المخنق المسكر الحار . . . .

ورفع بصره الحالم اليها والتوت زاوية فمه الناتىء القرمزى فى ابتسامة مسكينة متوسلة ممزقة ، وارتعشت أهدابه الطويلة فالقت على خديه ظلالها القاتمة الساحرة وبسط كفيه ، واشرأب بعنقه ، وحاول جهده أن يتكلم ولكن الألفاظ اختنقت فى حلقه فغمغم غمغمة لا معنى لها .

وكان اذ ذاك رائع الجمال ، روعة فاجعة اليمة لم يسبق لاحسان ان أحست بها فشخصت اليه وارتجفت ، وخيل اليها ان جسمها كله ينحل ويتهاوى ، وان روحها تهفو اليه ، وانها تدنو بوجهها منه وتسبل عينيها فى نشوة غريبة وتفتح شفتيها لتقبله . . .

وشعر منها بهذا العطف الفجائى فنهض ولكنه ما أن استوى على قدميه واتجه نحوها وأبصرته رجلا . . . رجلا كاملا جميلا مديد الجسم عريض الاكتاف ، مفتول العضل ممشوق القد . أعلى قامة منها ومن والده حتى زايلتها النشوة ولمعت عيناها ودفعته عنها بغلظة وعنف وصاحت :

— إبعد ! . .

فحدق فيها مبهوتا ، وفغر فاه كأبله وتراخت ذراعاه وسقطتا

وفى تلك الساعة . فى تلك الساعة فقط ، استطاع ان يقرأ فى عينيها كل ما تكنه

له من حقد وبغض . وكأن هذه الصيحة وتلك الدفعة قد هزته من ذهوله وأيقظته من سباته وبددت السحب المتكاثفة حوله فاحس بضياء وهاج يضرم عقله ولمس الحقيقة عارية وفطن الى كل شيء وأدرك مايجب عليه فعله وما تريد احسان منه ولا تجسر على مصارحته ولا مصارحة نفسها به فتقهقر بضع خطوات ثم أطرق واختلج وبكى

واكتفت احسان بما رأت وهزت كتفيها وخرجت مسرعة

* * *

وفى المساء أعد محمود حقيبته ولم يودع (أم سطوحى) وانسل من باب الحديقة الخلفى دون ان يشعر به أحد

ومضت سنة طويلة وهم لايعلمون الى أين ذهب